المحور الخامس: الموروث الحضاري القرطاجي

I. الجانب الاقتصادي:

اعتمد الاقتصاد القرطاجي على ثلاثة عناصر أساسية وهي انتاج زراعي وافر وصناعة جيدة مزدهرة وتجارة رائجة، ولقد اعتنى القرطاجيين بمختلف هذه الميادين، فوفروا كل الظروف الضرورية لتطوير الاقتصاد وزيادة الثروات التي غزوا بها الكثير من أسواق عالم البحر الأبيض المتوسط.

1.الزراعة:

تمكنت قرطاج من القرن 5 ق.م، اثر حروب متعددة مع سكان البلاد الأصليين، من توسيع منطقة نفوذها المباشر على الأرض الممتدة من حدود ليبيا الحالية جنوبا إلى حدود الجزائر الحالية شمالا، واستطاعت الأرستقراطية من أصحاب العقارات استغلال مساحات شاسعة خصبة بطريقة ناجعة مكنتها من التفوق والتميز في هذا المجال على بقية شعوب المتوسط.

وقد اهتم القرطاجيون بالزراعة حسب ما أورده المؤرخون في كتبهم؛ ويصف ديودور الصقلي المنطقة التي دخلها أغاتوكليس في 310 ق.م في زحفه على مدينة قرطاجية تخللتها الحدائق والحقول وأبار مجهزة بقنوات الري، والارض مغروسة كروما وزيتون وانواع من الاشجار المثمرة والمراعي تسودها قطعان الابقار والاغنام والخيول[207].

كما اشتهر في الزراعة العالم القرطاجي "ماغون" صاحب الموسوعة المكونة من 28 جزءا تناولت الضيعة بما فيها من زراعات كبرى وغرس اشجار وتربية المواشي، الا ان اجزاءها قد ضاعت، وما بقي منها 66 فقرة تتعلق بزراعة القمح وغراسة الاشجار المثمرة كالكروم والزيتون واللوز والرمان والتين، وبعض النباتات البرية الاستشفائية[208]،كما عرف القرطاجيون صناعة الخمر من الزبيب إلى جانب الاهتمام بأشجار الزيتون لإنتاج الزيت[209]، ومن الأشجار التي اهتم القرطاجيون بغراستها أيضاً أشجار اللوز والتين والرمان[210].

انتشرت كذلك في قرطاجة تربية المواشي في أملاك الأسر الغنية في ضواحي المدينة، كما قام القرطاجيون بتربية بعض الحيوانات الأخرى ومن بينها: الأحصنة والحمير والبغال والبقر والاغنام بصفة خاصة ذات

الاذيال القصيرة، كما عرفوا صيد الأسماك في خليج تونس حتى كان الفائض يجفف ويصدر ما جعلهم يجهزون مستودعات للأسماك المجففة[211].

وقد اورد بلين الكبير اخبارا عن ماغون، حيث ذكر أنه كان من قادة الجيش القرطاجي، وقد عاش في القرن السادس قبل الميلاد، غير ان المعلومات التي جاءت في الموسوعة لا تتناسب مع تلك الفترة فقد ورد فيها معلومات تعود للقرن الرابع قبل الميلاد في الوقت الذي تفتحت فيه هذه الحضارة على الحضارة اليونانية وبالتالي فالحد الاقصى لحياة ماغون هو القرن الرابع قبل الميلاد، أما الحد الادنى فأشار له المؤرخون بالحروب البونية، مما يعني ان ماغون عاش ما بين القرن الرابع والثاني قبل الميلاد، وينسب الباحث الايطالي اسبرنزا الموسوعة الى اخ حنبعل "عبد ملقرت"، لأن الصفات التي نسبت لماغون تتوفر فيه فقد كان قائد جيش عاش خلال الحرب البونية الثانية وهو كغيره من افراد اسرته البرقيين مولعين بالزراعة؛ كما فعل حنبعل بأن امر جنوده بغرس الزيتون في ربوع الساحل "موزاق"[212].

2.الصناعة:

اشتغل الفنيقون بالصناعة منذ تأسيسهم لمدينة قرطاجة غير أنها كانت في أول الأمر بسيطة بحيث لا تتجاوز صناعة السفن واصلاحها ثم استخراج صباغة الاجوان من محار الميوريكس الذي يصطادونه من شواطئ بلاد المغرب، بالإضافة الى صناعة الفخار التي كانت تنقصها الجودة والاتقان. ولم تزدهر الصناعة القرطاجية الا اعتباراً من القرن الخامس قبل الميلاد عندما اصطدمت قرطاجة باتحاد المدن الاغريقية في معركة هيمرا سنة 480 ق.م. وقد اتضح لقرطاجة بعد هذا الاصطدام أنها لا تستطيع أن تصمد في أي صراع مقبل مالم تكن صناعة قوية [213].

ويلاحظ من خلال النقوش التي تشير إلى الكثير من الحرفيين ان الصناعات لم تكن من اهتمامات الطبقة الارستقراطية وانما تركزت في ايدي المواطنين، الذين يرى غزال انهم كانوا تابعين للنبلاء الذين كانوا يمارسون التجارة البحرية، ويملكون المزارع الكبرى ويوجهون السلطة السياسية والاقتصادية في قرطاجة، وقد تردد في النصب التذكارية ذكر عمال التعدين كالنحاس والحديد والرصاص والبرونز مثل صناعة ادوات الفلاحة كالفأس[214].

وكانت اكثر الصناعات رواجا صناعة الفخار الذي كان يستخدم في الحياة اليومية فصنعوا منه المصابيح والتماثيل الصغيرة والقدور، وفي الاثاث الجنائزي مثل الاجاجين (Urnes) يستعمل لحفظ عظام الموتى[215]. وقد شكّل مادة هامة في الصناعة القرطاجية، رغم خلوّه من الخصائص الفنية والإتقان.

وقد ساهمت الزراعة في تنشيط القطاع الصناعي ويتجلى ذلك في تحويل بعض المنتوجات كتجفيف التين والعنب وصناعة الزيوت والخمور وتصبير الاسماك فضلا عن النسيج والصباغة والنجارة ومن المواد التي تستند اليها الصناعات القرطاجية الطين، المعادن الخشب والعاج والاحجار الكريمة وكانت المنتوجات تنتج للسوق الداخلية وتزود الاسواق الخارجية[216].

كما برع القرطاجيون في صناعة السفن وآلات الموانئ التي استعملوها في التجارة وحروبهم مع الاغريق والرومان فيما بعد، ففي الحرب البونيقية الثالثة تحولت المدينة بكاملها إلى ورش صناعية لبناء السفن وصناعة الأسلحة[217]، ويقول استرابون أنهم كانوا يصنعون في اليوم 140 ترسا طويلا و300 سيف و500 رمح و1000 قذيفة منجنيق، كما نجحوا في خلال شهرين ببناء 120 سفينة ذات سطح[218].

3.التجارة:

لقد اعتمدت قوة الفينيقيين شرقا وغربا على مهارتهم في صنع السفن وعلى إتقانهم صناعة تجهيزاتها، وبهما كوّنوا أسطولا ذا طابعين: الأول تجاري والثاني عسكري، ولهذا كانت المستعمرات التي أنشأوها والمستوطنات التي أقاموا بها هي في الوقت نفسه مرفأ لرسو السفن، ومصرفا لتسهيل المعاملات التجارية للسفن القادمة بحرا وللقوافل الواصلة برّا.

وقد لعبت قرطاجة دورا تجاريا هاما في المنطقة فقد عملت على احتكار الاسواق بالقوة او بالمعاهدات التجارية، خاصة في القرن الرابع قبل الميلاد حتى انهم منعوا روما من التعامل مع سواحل المتوسط غرب قرطاجة مثل معاهدة 509 ق.م، وتليها معاهدة 348 ق.م، وتوسعت الرقعة لتصل الى غرب الراس الطيب في محور سردينيا اسبانيا ليبيا[219]، غير أنها فقدت سيادتها على صقيلية واسبانيا ثم انكمشت حدودها السياسية عقب نهاية الحرب البونية واقتصرت على حدودها في شمال افريقيا[220].

وتميّز الأسطول القرطاجي البوني بسعة الحمولة وسرعة الحركة، لهذا لا نستغرب من إشارة بعض المصادر التاريخية إلى أن قرطاجة جهزت بهذا الأسطول رحلتين خارج البحر الأبيض المتوسط، الأولى إلى شمال أوروبا بحثا عن القصدير في سواحل الجزر البريطانية، ورحلة ثانية إلى الجنوب على الساحل الأطلسي بدءا من سواحل المغرب الأقصى إلى سواحل غرب إفريقيا الوسطى بحثا عن الذهب.

أما فيما يخص المبادلات فقد كانت المقايضة الصامتة كما وصفها هيرودوت[221]، ولجأوا الى الدفع في الوقت اللاحق بالسبائك الموزونة من الذهب والفضة أو العملة وتضمن الدولة قيمتها[222] لأن العملة لم تسك حتى اواخر القرن الخامس في صقيلية[223]، أما فيما يخص المبادلات فالنصوص الادبية غائبة والاثار لا تعطينا أكثر من الاثاث الجنائزي. أما وارداتهم فمواد اولية من اسبانيا مثل الحلفاء لصناعة الحبال ومعادن مختلفة مثل الذهب والفضة والقصدير، وكانت إيبيزا تقدم الصوف والجلود، وافريقيا العاج والاخشاب، وسردينيا و نوميديا الحبوب والفخاريات، والبرونز كان يجلب من قبرص وبلاد الاغريق عامة[224]،أما الصادرات فكانت خمور وحبوب وزيت الزيتون، واللحوم المجففة والارجوان، وأصناف الخزف العادي، بالإضافة إلى التمائم والأنسجة المطرزة و الزرابي والحلي والمعادن الخام [225].

II.الجانب الاجتماعي:

1.طبقات المجتمع القرطاجي:

تؤكد الكتابات الكلاسيكية بالإضافة إلى نتائج الأبحاث الاثرية، أن مدينة قرطاجة كانت مقسمة إلى أحياء سكنية متميزة حسب الطبقات الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع القرطاجي، وهي أحياء صلامبو، بيرصة ثم ميغار[226] . كما نجد تمييزا واضحا بين طبقات المجتمع في القمة نجد الارستقراطية المبنية على الثراء كانت تسيطر على الشؤون العامة، يليها عامة الشعب له حقوق سياسية معتبرة، أما فيما يخص العبيد، فكان عددهم كبيرا، ونجدهم فيكل مكان: في الورشات وفي دور التجارة وفي الاسطول البحري وفي الادارة العامة، وفي اعمال الفلاحة عند الاثرياء ولا يتمتعون بأية حقوق سياسية[227].

كما تم تقسيم عناصر المجتمع القرطاجي إلى مواطنين واجانب وعبيد، والمواطنون هم من يتمتعون بالمواطنة ولهم الحق في الاسهام في بناء المجتمع توكل لهم المهام السياسية والادارية على اساس الثروة والثقافة، ومن

نفس الطبقة نجد الذين يتعاطون مختلف الصناعات والحرف مثل النجارة والحدادة والبناء والفخارة وكل من يعمل في مجال البحر والزراعة ممن يملكون حقولا وبساتين توفر لهم سبل عيش متواضعة حتى انهم كانوا يكتبون حرفهم على النصب المقدمة للآلهة، ومنهم كذلك الاطباء والمدرسين والمهندسين وبعض العمال في دواوين الادارة كالكتبة، وهم كثيري العدد قليلي الفاعلية[228]. كما ضم المجتمع القرطاجي الجاليات الأجنبية الذين جلبتهم خيرات المنطقة، فكان البعض يأتيها للتجارة او لمهمة وقتية أخرى كالحرفيين من صقلية وإيطاليا وبلاد الاغريق[229]، وقد اعتمد القرطاجيون على نظام الرق شأنه شأن المجتمعات القديمة الأخرى، وكانوا معترف بهم كبشر يتزوجون ويقوم بواجباتهم الدينية ولهم حق الملكية، ويمكن أن ينالوا حرياتهم بكد أيديهم [230]. وقد احترمت المرأة القرطاجية واسندت لها وضائف دينية وسياسية وتجارية بالإضافة إلى المهام المنزلية المنوطة لها مثل تربية الأبناء ورعايتهم والقيام ببعض الحرف منزلية كالحياكة[231]، مثل "صفنيبة" زوجة ملك نوميديا الغربية سفاكس[232].

أما عن التقاليد فيعد لمجتمع القرطاجي أصيل ومنفتح، فقد بقي متمسكا بتقاليده الشرقية العريقة، ولكنه لم يرفض بعض تقاليد المجتمعات المتوسطية الغربية، وحافظ على لغته الفينيقية مع دخول بعض التغييرات عليها، هي في نظر علماء اللغة تحريف ومع تمسكه بلغته الأم كان المجتمع القرطاجي يُحسن لغات عدة جعلته قادراً على التعامل بسهولة مع شعوب ضفَّتَي البحر الأبيض المتوسط.

وهو محافظ على لباسه الشرقي، كالجبة الطويلة الواسعة الأكمام والقلنسوة غطاء للرأس، لكنهم لم يرفضوا اللباس المغربي كالكدرون والبرنس. و تمسكت النساء بكثرة استعمال التطرية (Maquillage) وكثرة لباس الحلي إبراز لجمالهن[233].

III.الجانب الديني :

مما لاشك فيه أن الديانة كانت تحتل مكانة هامة في الحياة العامة والخاصة للقرطاجيين، فلأسمائهم التي يحملوها تدل على ذلك حيث اقترنت بأسماء آلهة فينيقية وآلهة محلية مثل: "شافوط بعل" الذي يعني قاضي بعل، "حنبعل" أي حضي بحظوة بعل، "عبد شمون" أي خادم أشمون، "عبد ملقرت" أي خادم ملقرت.

ومن بين الآلهة التي عبدها القرطاجيون نجد آلهة أحضروها معهم من صور مثل ملقرت، عشتارت واشمون[234]، كما نجد آلهة محلية مثل: تانيت التي أخذت مكانة عليا بعد تراجع مكانة بعل حامون اللذي كان يعتبر المعبود الرئيسي للماغونيين بعد القرن الخامس قبل الميلاد[235]، بالإضافة إلى آلهة ثانوية اخرى[236].

لا يستبعد أن تكون للقرطاجيين في المرحلة الأول كهوف مقدسة أو بعض المرتفعات المقدسة، وفي المراحل اللاحقة أصبحت المواقع المخصصة للعبادة في المناطق السهلية تقام في الهواء الطلق، محاطة بأسوار ضخمة خشنة وسطها مكان لتقديم الاضاحي ومسكن للإله، وقد انتدب عدد من الكهنة والكاهنات لخدمة الإله وتميزت مراتبهم بأنها وراثية وكانوا يتزوجون، وليس لهم اي دور سياسي[237].

وقد اقترنت العبادة والاحتفالات الدينية، حيث عرف القرطاجيون اعياد مثل "العيد السعيد المبارك" حسب ما ورد في نقيشتي دوقة، ومن طقوس العبادة عند القرطاجيين طقس تقديم الاضاحي مثل الاضاحي البشرية والحيوانية والطيور، وبواكير الفواكه والزيوت والحلويات والحليب، كما لم يعبد القرطاجيون موتاهم كما هو شأن الشعوب القديمة، بل اهتموا بقبورهم وكانوا يؤدون مراسيم جنائزية اثناء الدفن أو بعده فيقدمون الولائم المأتمية كما كانت توحي النصب القرطاجية، فقد كانت تقدم على شرف الاله الذي كان يحمي الميت الممثل في النصب، وقد وفروا لهم قبور تحتية بأبواب وسقف مغطى بمدماك او بلاطة تشكل السقف، وفي القرن الرابع قبل الميلاد باتت القبور تحفر على اعماق كبيرة وصلت الى 22 م، في حين ظل الارستقراطيين يبنون لأمواتهم اضرحة مثل ضريح دوقة[238].

IV.الجانب الثقافي:

إن أساس الثقافة هي اللغة، وقد انتشرت لغة الفينيقيين القادمين من الشرق في كامل البلاد التي استوطنوها بسواحل افريقيا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط. وبقيت اللغة اللوبية فقط في المناطق الريفية والداخلية. وتدل كثرة النقوش في ربوع المغرب العربي إلى حدود الصحراء على مدى انتشار التعليم اللغة القرطاجية[239]. وقد اشتقت اللغة التي يتكلم بها السكان في قرطاجة مباشرة من الفينيقية وسميت باللغة البونية[240]، أما عن الكتابة فالكتابة البونيقية كانت صورة عن فينيقية قرطاجة، وقد وردت بعض النصوص في النصب النذرية وبعض شواهد القبور والنقوش على القطع النقدية، كما ان القرطاجيون

طوروا البونيقية وسموها بالبونيقية الجديدة ورد فيها العديد من اسماء الاهالي[241]، وتتكون الكتابة البونيقية من 22 حرف ساكن وتقرأ من اليمين إلى اليسار، وقد تميزت بمظهر حروفها المائلة والمنحنية في بعض الأحيان لذلك أخذت حروفها شكلا أكبر[242].

انتشار الكتابة في مختلف ميادين الحياة من تجارة وإدارة وتوثيق، إلا أن المدونات المحلية مثل موسوعة ماغون الزراعية وكتابات غيره لم يبق منها إلا الأثر مذكورا في المصادر الكلاسيكية، خاصة مع التخريب الذي طال قرطاجة؛ فقد ذهب جلها غذاء النار التي أضرمتها الجيوش الرومانية بأمر من القائد سكيبيو اميليانوس في الحرب البونيقية الثالثة[243].

يكاد يحدث اجماع بين المؤرخين القدامى منهم والمحدثين على عدم وجود فنون قرطاجية أصيلة وخالية من التأثير الأجنبي. حيث عرف الفن القرطاجي بالمحاكاة فقد نقل القرطاجيون عن جيرانهم الاجانب جوانب زخرفية، ويصعب تأكيد الى اي درجة كان التقليد في الفنون القرطاجية[244]، ومعظم النحاتين كانوا يونانيين[245]، غير انهم عرفوا زخرفة الفخار المتوسطة الجودة الذي تنقصه الاصالة يكتفي بدوائر حمراء واخرى سوداء وسط اجواف ملتوية[246].

أما في مجال العمارة بنى القرطاجيون مبان ضخمة، يقال أنها بستة طوابق، تنتهي بسطوح على ما يفهم من المعارك التي جرت فوق هذه الدور في الأيام الخيرة لقرطاجة[247]. ومن الفنون التي عرفها القرطاجيون على الرغم من انها كانت متواضعة نجد نحت التماثيل الصغيرة والتوابيت والنصب التذكارية[248]، كما عرفوا فنون دقيقة مثل صناعة الحلي والتي عثر على نماذج لها في القبور القرطاجية[249].